صل من أجلي

انحنى على الطفلة بعوده المفتول ، واستقبل جبينها المرح يودعه قبلة طويلة وهي موشكة أن تنام .

ولامست أنفاسه وجهها ، فطوقت عنقه بساعديها ، وهبطت على وجنتيه تلثمهما فى حرارة وإصرار ، مفضية بما تكن لعمها من محبة وإعزاز ، فلم يسعه إلا أن يضمها إلى صدره ضمة اشتياق ، واستغرقا على هذا النحو فى عناق جياش .

وما إن دار على عقبيه ينأى عن السرير ، حتى استنكرت منه الطفلة فى مهدها ذلك الفراق العجول .

وتشعثت حركاتها ، وكثر شغبها ، فغشى الفراش فوضى وكأن ما تناثر من أغطيته ، وتبعثر من أرديته غوارب موج علت بها ثائرة الريح ، فانكب العم على السرير يصلح من أمره ويسوى حواشيه.

لم يغب عنه وهو يسجى الطفلة من جديد أن يدمث لها الوسادة كى يستوى رأسها فى وضع مريح ، فتنام ساكنة البال قريرة العين ، ثم بسط الغطاء يدثرها به خشية أن يصيبها من برد الليل أذى .

obeikandl.com

وسرعان ما عدل قامته ، وأدار ظهره ، ملتمساً فى خطاه البهو الكبير .

بيد أن الطفلة لم تهدأ لها حركة وتمادت فى غيها تصخب .

وفطن العم إلى ما تبتغيه الطفلة : إنها لم تقصد من وراء عملها هذا إلا المماطلة والتسويف يمتد اللقاء فلا تشق إلى النوم من طريق .

وحين استدار العم على عقبيه يواجه الطفلة ، تصنع الغضب ، فأكسب ملامح وجهه سيماء الجد والحزم ، وكذلك شحذ حنجرته ، فى سعلة عالية ليخرج صوته الهزيل ، جهورى الجرس ، يوقع فى روعها التخويف والترهيب ، وهو يصرفها عن غيها المألوف كلما أوت إلى الفراش تهدأ وتستريح .

ولما نطق يؤنبها ، انكسرت حدة صوته ، وملكت عقيرته رنة عطف وخلجة حنان ، وما لبثت أساريره المربدة ، أن انفرجت يكسوها إشراق .

ليس ذلك بغريب عليه : إن إرادته الصلبة حيال الطفلة شمعة واهنة تحترق وتذوب .

ومثل للطفلة يبتسم .

بيد أنه ألفاها عاقدة الجبين ، زاوية ما بين حاجبيها ، ترميه بنظرة يتجلى فيها أسف وعتاب ، فجلس على حافة السرير

يداعب وجنتها بقبلة خاطفة ، وقد احتوى يدها الصغيرة بين كفيه ، وانبعث يخاطبها فى وداعة يقول :

كفاك عناداً يا طفلتى ... مكثت معك أكثر مما ينبغى ... لا أود أن أكون سبباً فيما ينشب بينك وبين أملك من لوم وتعنيف ... دعى الليلة تنقضى فى سلام ... هيا ... عليك بالنوم ... أعدك إن شاء الله أن يكون بيننا فى غد لقاء.

وهم واقفاً يخلى حافة السرير .

فتعلقت به الطفلة تغمغم فى صوت محزون :

لا تتركنى ... ابق معى ... أنا خائفة .

وراع العم ما سمع ، وطفق يمسح على رأسها بيده ، ويلاعب خصلات شعرها الخصيب ، متبسطاً فى الحديث يسائلها :

وما سر خوفك يا طفلتى ؟

وأطبقت الطفلة على يده وقد استبانت على محياها ظلال امتقاع ، وهى تقول :

فى غد يكون الامتحان .

– أوَهذا سر اضطرابك يا بنية ؟

وأومأت الطفلة برأسها تؤكد قوله مسبلة الجفنين .

وافتر ثغره عن ابتسامة وهو يبادرها بقوله :

obeikandl.com

خيال ما تتوهمين . . . يوم الامتحان لا يخيف . . . ليس فيه ما يعكر الصفو . . . ستجدين فيه ما تألفينه فى كل يوم : أنس من أترابك وحفاوة من مدرساتك ومدرسيك .

يا للحجة الداحضة ، ويا للمنطق السقيم !

زعم باطل ذلك الذى ساقه من قول .

لا ريب أن الامتحان ظله ثقيل وموقفه بغيض .

لطالما انتابه منه فزع مروع وهلع مستطير .

أوَناسٍ هو ؟

ألم يسهد الليل بطوله خاوى البطن ، محموم الأوصال ، وفى خياله منظر المدرس منتفخاً على مقعده وكأنه ضرغام جسور يحدجه بالنظر الشزر ، وما أسئلته إلا أنيابه المسنونة تنهشه نهشاً ، فيقف منه ، واذلاه ، يابس الفم ، متخشب اللسان ، لا يحسن إلا الفأفأة ، وهو يتخبط فى أجوبة طائشة .

فلماذا يألف نفسه الساعة مسوقاً إلى تضليل للطفلة وتغرير ؟

وانتبه العم على صوت الطفلة تناديه ، فالتفت إليها يقول :

هل من جديد ؟

فرققت الطفلة من صوتها وهى تعابث حاشية الغطاء :

لى عندك رجاء .

ـ مطلبك على العين والرأس .

ـ صلِّ الليلة من أجلى . . . ادع الله أن يلهمنى الصواب فيما أكتب وأجيب . . . إنى بك متفائلة و بدعائك مستبشرة .

ـ لك ما تبغين يا صغيرتى .

وانحنى على الطفلة يقبل جبينها قبلة خاطفة ، وراح فى خطاه يتوخى باب الحجرة، ولكن صوت الطفلة ناداه يستوقفه قبل أن يدير مقبض الباب و ينصرف ، وسمعها تقول :

سهوت عن أن ترقينى على مألوف عادتك قبل أن أنام .

وكر العم راجعاً إليها ، ومر بيده على رأسها هامساً برقيته .

واستشعرت الطفلة راحة تسرى فى أوصالها ، واستسلمت للنوم.

وزايل العم الحجرة يحاذر فى خطوه ، ومن ثم ترك المنزل ليلتقى بالطريق ، فصافح وجهه نسيم رطب عطر .

وتحيرت قدماه : إلى أين تسعيان .

وتطلع إلى ساعته فألفى الليل قد توغل ولا أمل له أن يذهب إلى منتداه المفضل يستمرئ فى صحبة الرفاق وقت مؤانسة وصفاء .

ومكث غير قليل لا يعى ماذا يصنع .

ما باله يستشعر أن فى دخيلة نفسه ما يشبه حجراً ثقيلا يعوق انطلاقه فى تلك الأمسية التى رق هواؤها ورطبت أنفاسها .

وتريث في وقفته يبسط أوصاله ويضمها مستعيداً نشاطه المألوف.

وبعد لأى ضرب يديه في جيبي سرباله وأطلق العنان لقدميه لا يعرف لخطواته قصداً ولا وجهة.

وعرجت به خطاه في طوايا الطريق على ضفة النيل، فظفر به يسبح في لجة من فضة، نامياً على صفحته القمر مكتمل التألق والبهاء، فعقد ذراعيه على صدره وقد تاه في أجواز الخيال.

ما لتلك الطفلة تخوض في شأن صلاحه وتقواه تهرف في الحديث بما تجهل؟

من يكون هو في تقديرها لتطالبه بالدعاء؟

ألمجرد عبادة وصلاة يصبح قدساً من طهارة وقبساً من نقاء؟

الصلاة ما هي إلا مظهر، تكليف واجب الأداء، لا يتكيف بها حكم على إنسان.

إن الطفلة لا تعرف من حقيقة أمره إلا مجرد طلاء، شأنها شأن المتطلع إلى قبر تحليه النقوش والرموز لا يدري ما تضمه غيابته.

وما قلبه إلا غيابة ذلك الجدث.

كل ما تعرفه الطفلة أن عمها رجل سمح الوجه، ندى الكف، أنيس الجليس، ملء نفسه تقى وصلاح...

ولكنها تجهل أن هذا العم لم يسلم من الإثم، ولم يكن

بالطاهر العفيف ؛ لقد وقع فى حبالة هوى غير مشروع .

ها هو ذا يعكف فى صومعة ضلاله ، ومحراب غوايته ، يحرق عقله ويذيب إرادته بخوراً يعطر ذلك الهوى الذميم .

لم يكن بأقل وثنية من هؤلاء الكهنة المتعبدين الذين يستهلكون الساعات الطوال يرددون الصلوات والتعاويذ أمام دمى خرساء .

أثمة اختلاف بين الإحساس بالرغبة وإنفاذ المبتغى المراد ؟

كلاهما فى عقيدته إثم يصرخ الضمير منه ويلتاع .

هذه المرأة التى شغفته حباً ذات زوج وولد ، وإنه إن التقى بها ، وما أكثر لقاءهما ، سعى إليها بالمواحظه يلتهم منها قدميها الناصعتين المتوردتين ، ثم تسبح عيناه إلى الساق البديعة الملساء تموج فى جوربها الهفهاف ناعمة بضة ، ويعلو بأنظاره إلى شفتيها المكتنزتين كأنهما حبتان من كرز ناضجتان ، وما يزال فى تطوافه بالمفاتن مسحور العين ، مشبوب الوجدان .

أليست صلاته وسط هذه الزوبعة الآثمة ضرباً من الزيف والضلال ؟

أيحق للطفلة أن تطالبه بتوسل ودعاء ، وهو كنقد تتداوله الأيدى دون أن تفطن إلى زيفه ؟

ما أكثر ما استمتع بحبه المحرم فى أحلام يقظته ورؤى نومه.

فما إن يحتويه فراشه ويغمض عينيه حتى يجسم له الوهم صاحبته تشق الظلمة عليه وتبادره فى غلالة كاشفة تماوج على خصرها اللدن فى إيقاع متزن يساير خطوها الرزين وهى تدانيه كأنها خطرات النسيم .

وهنا ينسدل الستار على وهمه الكاذب ، فيتنبه من أحلامه ناقماً على نفسه ، منكراً ما يطوح به خياله فيه .

لا . . . إنه لن يصلى . . . هى كلمة قالها ولا مرد لها .

وصدف عن النهر مهزوم القوى ، تترنح خطاه .

وبلغ شقته .

وما إن احتوته حتى صدمته الظلمة الجاثمة فى أرجائها ، وتعثرت قدماه بما اعترضه من أثاث ، فازداد ضيقاً على ضيقه ، وانبعثت من حلقه كلمات التأفف والاستنكار ، وعجل إلى زر الكهربا يطلق الإشراق من معقله فخرج النور يهزم جحافل الليل.

وقصد ، على الفور ، حجرة نومه يستبدل بملابسه منامته الرحراحة ، ويستكمل زينة المساء ، ولكنه عزف عنها وما زال مكتمل البزة قاصداً مكتبته يتردد إلى مجلداته وأسفاره ، فلم يرقه عبوس الكتاب وهو قائم فى صوانه خلف البلور الشفاف ، ففزع إلى حجرة الجلوس ، وعرك مفاتيح المذياع ينطقه ، بيد أنه ما أبطأ أن أسكنه ، ومضى إلى البهو الفسيح ، وهكذا

أخذ يحوم فى الحجرات مثل النحلة الذؤوب ، تضيق به رحبات شقته ، دون أن يركن لمقعد أو يخلد إلى ركن ، يصيب عنده طمأنينة البال .

يا لله . . . الطفلة ما فتئت تطارده حيث حل ، وتطالبه فى ضراعة بالنجدة والغوث .

كيف تتمتم شفتاه بدعوة ، وكيف به يجهر بصلاة .

أليس هو الآثم الأكبر : ما رعى خلقاً ولا فضيلة ، وما كان ممن تحتفى بأدعيتهم أبواب السماء .

وامتدت يده إلى عنقه تفك عنها رباط الرقبة، ثم عمد إلى زر بنيقته يفتحه .

وخطا إلى النافذة يملأ رئتيه بالهواء بعد أن تخفف من سترته ، وشمر عن ساعديه . .

وشعر بشىء من الراحة .

بيد أن حلقه يابس يطلب جرعة ماء .

وذهب إلى المستحم ، وقابلته المرآة ، فمثل يتوسم وجهه وكأنه ينظر إلى شىء بغيض يمجه ويكرهه .

أنضح وجهه بما طوى عليه صدره من غواية وضلال ، فانطبع على المرآة يشوه إهابها المصقول ؟

كفاه تحديقاً إلى شبحه المسئوم .

obeikandl.com

فليعمد إلى الماء يبل به ريقه ويمسح وجهه ليعيد إلى شحوبه نضرة الحياة !

وانبسطت كفه إلى صنبور الماء تدير مقبضه ، فانبثق الماء يفور فى الحوض ويمور ، بيد أن كفه بقيت ساكنة لا تمتد إليه .

متى كان الماء يمحو ما اصطبغ به وجه إنسان من خبث ولؤم وضلال ؟

أفى مقدور رذاذ أن يغسل المأثم ، ويطهر ضمائر العصاة ؟

يالله ، لكأن خرير الماء عبارات الطفلة تنهال عليه واضحة النبرة ، جلية الجرس ، تحثه أن يجهز نفسه بالوضوء ليشرع فى الصلاة والدعاء .

لا وضوء . . . ولا صلاة . . .

عليه أن يرد الماء عن مجراه ، وينصرف عن المستحم ، مسارعاً إلى فراشه ينشد فيه الأمن والسلام .

واندفعت يده إلى صنبور الماء تريد حبسه ، وما هى إلا أن أحس بالماء يغمر فمه ، ووجهه وقدميه ، فما نشب أن رام المستحم إلى حجرته ووقف يتحرى القبلة ويستقبل وجه الله .

وخطرت له فى صلاته توسلات الطفلة أن يدعو لها ، فإذا هو ينخرط فى دعاء وتضرع وابتهال ، سائلاً لنفسه هو دون سواه العفو والغفران .

obeikandi.com

الخاتمة

كان جالساً خلف مكتبه ، فى الحجرة التى اختارها لنفسه من ذلك المنزل الرشيق ، الذى استأجره على أرباض المدينة ، حيث تنكمش الحركة ، ويسودها السكون ، فجعل منه مثابة الإلهام ، ومنزل الوحى .

لم يألفه صباح اليوم ، متفتح النفس ، على مألوف عادته ، بل هو جامد الملامح ، مربد الوجه ، يستغرق فى تفكير ، وقد انكب على أوراقه ، يشغل بها نفسه فى تدقيق وتمحيص، ملتمساً لقصته الروعة والسمو .

ما لها تتعاصى على قلمه وتتأبى على فهمه ، منذ حين ؟

أيرجع إجداب فكره ، وجفاف قريحته ، لما أفرط فيه من سهر فى مغنى « الفن الرفيع » بصحبة « أمينة مكتبه » الحسناء ؟

إن عقله اليوم مشتت عليل ، لا يجود له إلا بتافه من الخواطر ، وفج من الأفكار .

عليه أن يدبر نهاية لقصته ، ولا بد أن تكون مثيرة عامرة

بالحيوية والانتفاض ، وها هو ذا قد وقف قلمه حائراً ، يضن بما يطمع فيه من حبكة موفقة ، وختام مثير .

ودافمت يده إلى لفافة تبغ ، أشعلها ثم اشتبك مع أوراقه فى عناد ، يعتصر ذهنه ، ويجمع شوارد خاطره ، وكأنه يسوق قلمه الشرود سوقاً إلى ما يرغب فيه ويريد .

وتمثل فى مخيلته طيف « أمينة مكتبه » الحسناء وملك فكره أمرها .

أتراها تستهويه لأنها تأنس به ، وتحدب عليه بما تحمل بين جوانبها من قلب كبير ؟

أم لأنها تدنى منه منال الوحى ، وتعينه فى ساعة الإلهام ؟

أفوق مستطاعه أن يزاول عمله بمفرده ، فى صحراء خواطره ، ومتاهة أفكاره ؟

وحانت منه التفاتة إلى ساعة احتلت من مكتبه ركناً قبعت فيه ، وكأنها الراصد اليقظ ، يحصى عليه وقت العمل ومدة الإجهاد .

فحدجها عاقد الجبين يتعرف !

وهز كتفيه ، يبرطم ، حين لاحظ أن النهار أوشك أن ينتصف .

وانكب على أوراقه ، يعاود المطالعة والتفكير ، بيد أنه لم يخط فى عالم الرأى خطوة يتصيد بها ما ند من خواطره ، وشرد من أحاسيسه

سحقاً لذلك اليوم المنحوس .

لا بد أن تكون « أمينة مكتبه » قد حضرت ، وأنها – لا شك – فى انتظار غمزة الجرس ، لتقبل عليه كشأنها معه .

أيدعوها الآن ، ولم يخط قلمه منذ الصبيحة الباكرة جملة صافية ، أو فكرة عالية ؟

وتطاول له رأس الجرس ، من بين كومات الأضابير ، يختنق بها مكتبه ، يدعوه إلى غمزه ، فتطلع إليه ، ويده تقبل عليه وترتد ، وقد اعتصر جبهته ، فاستبانت عليها ثنايا التجاعيد ، تكشف عن تحير وإحجام .

وجذب من لفافته أنفاساً طوياة ، ثم هز منكبيه ، ينصرف بأنظاره عن رأس الجرس .

لا . . . لن يدعوها . . . ليعالجن مشكلته بنفسه ، دون معونة أو إرشاد .

لن يناديها حتى تختمر فى رأسه الفكرة ويسلس له عنان التعبير ، لكى لا يكون لها من مهمة ، إلا أن تتسمع من فمه

ما يتدفق به من قول ، فتدونه على الورق كالآلة الصماء .

واستأنف يحمل عينيه على القراءة ويلقى بفكره فى أودية الأخيلة والتصورات مستبطناً سر الموقف القصصى الذى التوى عليه .

أما « أمينة المكتب » الحسناء ، فقد كانت فى حجرتها المجاورة ، خالية إلى نفسها ، مستغرقة فى تفكير ، فمنذ وفدت على المنزل مع الصباح الباكر ، وهى تتحين لقاءه ، لعلها تظفر بخبيئة نفسه ، وما ينحنى عليه صدره من أنباء حالية ، وأخبار تتلألأ بوميض آمال عراض .

لقد أنبأها — وهما مجتمعان فى مسهرهما المفضل ، ليلة أمس — أنه ملىء الوفاض بما تسعد به وتسر ، فلما حثته على الإبانة والإفصاح ، أمهلها إلى غد ، وهو يلاطف يدها ، ويعابثها ، فى تبسط وظرف .

فلما خلت بنفسها ، فى مرقدها ، نبا بها المضجع ، وقضت ليلتها مسهدة ، لا يغمض لها جفن ، تتقاطر عليها مشاهد من حياتها ، منذ نجم بينهما تعارف وتزامل ووصال .

أما كيف تم بينهما التلاقى ، فقد اتصلت عراه عقب إعلان فى الصحف قرأته ، فتقدمت تعرض خدماتها عليه .

لقد راعها منه وجه حسن ، وقامة معتدلة ، ودماثة خلق ، حتى إن قلبها لم يتمالك أن يخفق خفقاناً مضطرباً سرى فى أوصالها ، فكأن كلا منها قلب على حدة يخفق ويرف .

كم كان حفياً بها حتى إنه تمادى فى إكرام وفادتها ، فأفرد لها مكاناً بجانبه ، وقدم إليها لفافة تبغ ، فاعتذرت عنها فى أدب ، فطلب لها قدحاً من شراب الليمون ، وما عتم أن لاطفها فى الحديث ، يرفع كلفة اللقاء الجديد ، وانثنى يسائلها نتفاً من أخبارها .

وألفت نفسها منساقة ، تجيب فى غير خجل ولا تهيب ، تروى له قصة حياتها كاملة ، فوقف منها على أنها تعيش فى كنف أم مريضة ، تتطلب منها التعهد والرعاية ، وقد توفى والدها ، مخلفاً لها رصيداً ضئيلاً لا يسد نفقات العيش وأعباء الحياة ، فالتحقت — لكى تجابه مسئولياتها — بأحد معاهد الآلات الكاتبة تتدرب على أعمال الكتابة والاختزال ، وتلك هى مقبلة عليه ، لتظفر منه بما يعينها على التكسب من رزق حلال .

وشيعها إلى الباب . وقبل أن يغلقه طاف بها فى أرجاء المنزل ، فاستوقفها أمام حجرة من حجراته وهو يدفع ببابها يقول :

هنا مكتبك . . . الآلة الكاتبة فى انتظارك ، لكى تنجزى بها ما تراكم من عمل .

كادت تنفجر يومئذ ، من فرط حبورها ، عندما رامت منزله ظافرة منه بكلمة الرضا عنها ، والترحيب بعملها .

وما إن استقبلت أمها المريضة ، حتى انهالت عليها فى حماس ، تثنى عليه وتمتدحه ، فلم تلق من والدتها إلا التحذير والتخويف والنصح .

أليس الرجال كلهم من طينة واحدة ، ومنبت مشترك ! ! نشأوا غلاظ القلوب ، وتدربوا على أذية النساء ؟ !

ولكنها فى زحمة نشوتها ، لم تعر تلك الثرثرة الواهية كبير اهتمام ، وأوت إلى فراشها ، ضجيعة حلم بهيج ، أذلك هو الحب الذى يصيب من أول نظرة ؟

أمستغرب عليها ، بعد هذه الليلة البهيجة ، أن تتحين لقاءه ، فى هذا الصباح متوقعة أن يتضرج جبينها بحمرة الخجل ، ويسودها — كلما تطلع إليها — ارتباك ؟

ونأمت فى الحجرة حركة ، فانتبهت تتسمع ، عله يكون الجرس قد انبعث يدعوها إليه ، ولكنها لم تجد إلا صمتاً كأنما يتلصص عليها ، ويرصد منها خفايا الهواجس والأفكار .

وسمت إلى ساعة الحائط تتبين الوقت ، فإذا النهار وشيك الانتصاف ، وها هى ذى حبيسة حجرتها ، مشبوبة الوجدان ،

مقسمة الفكر ، تتحين صلصلة آلة صماء !

وداخلها قلق .

ماله يبطئ عليها ؟

ألم يفطن أنها أصبحت ظله الذى يأبى أن يفارقه ؟

أغائب عنه أنها صارت خلال تلك الشهور من تلاق وتلازم ، يؤنسها منه فى تلك الحجرة سيل من مشاعر فياضة رقاق ما تتمثل لها على الورق أناساً متقدة الحس حتى تألف معهم الحياة وتتوثق بينها وبينهم عرى مودة وإيناس .

أغائب عنه أنها قد صارت خلقه الذى صاغه وسواه فهى وحى من صنع خياله وفكرة من فيض إلهامه ؟

إن تلك المثابة الفنية لهى المخبار الذى أذاب فى أحماضه شخصيتها الأولى ثم أطلقها منه إنساناً جديداً يعتمل فى قلبه حب ويصطرع فى رأسه آمال .

الأجدر به أن يلقاها على الفور ، ويروى سمعها بما أخفاه عنها من أخبار مشرقة .

وفيما هى مستغرقة فى غمرة تلك الأفكار ، صلصل الجرس طويلا ، فما عتم وجهها أن اكتسى بالبهجة والإشراق ، وسارعت إلى مرآتها تلقى عليها نظرة فاحصة .

لقد حانت الساعة الحاسمة ، وآن له أن يكشف النقاب عن خبيئة نفسه .

سوف يطلق ، ساعة يلقاها ، ما فى جعبته بخوراً تفوح أطيابه ذكية ، فتنتشى بشذاه العبق ، وتأنس به .

وغيبت المرآة فى حقيبة يدها ، بعد أن أصلحت ما تهوش من شعرها وأمرّت على شفتيها القلم المحمر ، تعيد إليهما وجاهة الرونق .

وسرعان ما دفعت الباب الموصل إلى مكتبه ، فى رفق ، فأسفر عن وجهها البهى ، وقامتها المبسوطة ، ومنكبيها العريضين ، لفهما إليه مطرف من حرير ، يحليه وشى متآلف جميل ، وقد انطوى ساعداها على رزمة من ورق ، وتطاول بين إصبعين من يدها قلم .

وتجلت عند الباب مشرقة الملامح ، متوهجة الجبين ، بذلك اللقاء المرتجى .

وتشبثت بالمقبض تنظر إليه ، ملتمعة عيناها ، منبسطة أساريرها ، وقد تراحبت على شفتيها ابتسامة متألقة ، كأنها زهرة تختلج نشوى على عودها الرطب ، مشرقة الأكمام ، يطالعها وجه الربيع الندى .

لكنه لم يرفع رأسه ، ولم يلتفت إليها . إنما ظل على حاله ،

يقلب الصفحات أمامه ، ويرقبها ، كأن لم يدخل عليه أحد ، مغضن الجبين ، تتوضح على محياه علامات التزمت والضيق . .

فلم تجد الفتاة بدًّا من أن تغلق الباب فى عنف ، علّ ذلك المتحجر على مكتبه يفىء إلى نفسه ، ويتنبه إليها ، واسترسلت تحدجه فى غضب ، غير أنه تمادى فى انهماكه ، منصرفاً عما عداه ، مما زادها من تغيظ وحنق .

وكادت كلمات الاستياء تفلت منها تسائله فى تحد ، عن دواعى ذلك اللقاء الجاف ، لكنها ملكت نفسها ، وآثرت الصمت .

وما لبثت أن تخلت عن الباب ، تدلف فى الحجرة فى خطا رعناء ، حملتها إلى المقعد عن كثب منه ، فتهالكت عليه غير معنية بما تهوش منها ، تلتهمها نار الحيرة ، وتمضها لوعة الوساوس والظنون ، وكأن خبر الأمس المضىء ، ذبالة شمعة حاسرة النور ، مطموسة الوهج ، فى شعاع الشمس المصبحة .

لم ينظر إليها ، ثم صاح محنقاً يقول :

لم أعد أحبك . . . أما فهمت بعد . . . ؟ !

واضطربت الفتاة ، وتسارعت دقات قلبها ، ثم تضرج وجهها بحمرة قانية ، وسادها ارتباك وسهوم .

وطأطأت رأسها ، تتشاغل بأثناء ثوبها ، تخفى ذهولها من هول المفاجأة .

أما هو ، فصدر عن المكتب عاقداً يديه خلف ظهره ، واستقبل النافذة ، ينظر منها وينفث دخان لفافته جزافاً ، فيتلوى على زجاجها ويغشاه . . .

ويظل على هذا النحو مستغرقاً فى تأمل وصمت .

غريب منه ذلك الصنيع .

إنها لم تألفه قطَّا غليظ القلب على هذا النحو ، حتى إن الابتسامة الوضيئة التى كان يلقاها بها لم يرف لها وميض ، ونظرته المعبرة لم تتوضح ، وكلمة الترحيب الطيبة ليس لها فى الحجرة صدى ورنين .

أهذا هو النبأ المشرق الذى أزمع أن يفك عنه طلاسم الأسرار ويبثها إياه ؟ !

ليته كتمه عنها ولم يلوح لها به .

إنه انقلب أفعى تسعى بين يديها ، لا يحسن إلا اللدغ بما اختزنه من قواتل السموم !

ما ينبغى لها بعد الآن أن يعتمل فى قلبها حب وتبرق فى رأسها آمال .

وأفاقت الفتاة على صوته الراعد يقول :

لا تنكرى سنة الحياة . . . النار تخبو . . . والثوب يبلى . . . والحب لم يسلم من يد العفاء . . . قلبى لم يعد يتسع لك . . . إنى أكرهك . . . لم أعد أحبك وأهواك . . . وجب عليك أن تقبلى الأشياء على علاتها بصدر رحب ، ونفس راضية .

وما كادت الكلمات تتوضح لسمعها ، وتتبلور فى عقلها ، حتى ضاقت بها الحجرة ، وكأن جدرانها سواعد غليظة العضلات أطبقت على عنقها تعتصره اعتصاراً ، وأن ما يحيط بها من فضاء هو جب سحيق المهوى ، حاسر الضوء ، مختنق الهواء .

فامتقع وجهها ، وتسارعت أنفاسها ، وحدقت فى الأوراق ، على ركبتيها ، فتمثلت لها غوارب موج ، تمور أعماقها بسوالف الأحداث ، ومواضى الذكريات .

لم يسعها إلا أن تتذكر تلك الليلة التى قضياها على أرباض المدينة الساجية ، فى نزهة خلوية ، على ضوء القمر .

ألم يفتح لها قلبه ، وينفض بين يديها جعبته كطفل التقى بالصدر الحنون ، فاسترسل ينفث فيه رغباته وأمانيه ؟ !

لقد اندفع يشق غلائل الضباب ، الذى يكتنف المستقبل المبهم ، صاروخاً منطلقاً إلى أعلى يرتاد مجاهل السماء ومطوى الغيوب .

كان وهماً جميلا ذلك الذى صوره ورعاه .

إنه هيأ لها فيه مكاناً شغلته . . . بل كانت هى الشمس التى تحف بها أفلاك وأقمار .

سوف تصبح رفيقة أسفاره ، وحليفة أفكاره ، ترصد له ، وتدون ما يختلج فى نفسه من تجارب واستجابات للحياة والأحياء .

سوف يطيران إلى بلاد الفن الخالدة ، يستقبلان ربوع أسبانيا المشرقة ، وإيطاليا الضاحكة ، وسويسرا المهندمة ، وألمانيا المجدة ، وفرنسا اللاهية اللعوب .

سوف يتخطى بها ومعها أدبه حيزه الضيق لينطلق إنسانيًّا متطوراً ، يكتب له فى سماء الفن العالمى السمو والخلود .

لماذا حدثها ذلك الحديث المستفيض وهو قريب عهد بها ؟!

لماذا كان يملأ قلبها بالأمانى الرطاب ، والأخيلة العذاب ؟ !

أعزب عنه أن قلبها بالحياة حفى كالأرض البكر ، سرعان ما تتنضر وتخضر ، إذا أتيح لها زرع ورَىّ ؟

وسمعته يتنهد تنهدة جياشة ، فاشرأبت بجسدها كله إليه ، وإذا به ما زال إلى النافذة رانياً ، يوليها منكبيه عاكفاً على صمته ، غارقاً فى تأملاته .

فما لبثت أن تهاوت بقوامها على المقعد متخاذلة ، وألقت

obeikandi.com

برأسها على مسنده ؛ وقد أمسكت بالقلم تقرض أطرافه فى تغيظ .

كم ودت أن تكاشفه ساعة أسدل على منكبيها ذلك المطرف الموشى ، بما يعتمل فى نفسها من مشاعر جياشة ، لكنها سكتت ؛ لا تملك إلا أن ترنو إليه ، وترنو مشبوبة العاطفة ، مضطربة الوجدان .

أما هو فلم يتفوه بكلمة . غير أنه ضغط يدها ، وضغط حتى آلمها ، ولكنه ألم أشعرها بالحب وغمرها بالسعد .

كم كانت تواقة أن تهمس له من أعماق قلبها : ألم تدرك بعد أن بجانبك مخلوقاً يفهمك ويقدرك ويذوب عطفاً لك ومودة ؟

ما أروعه من يوم ، عندما خلط بين اسمها واسم النجم اللامع فى روايته ، فأخذ يسكب فى سمعها كلمات الهوى والغرام ، لا يحده فى انطلاقه حاجز ، ولا يوقف تياره مانع . كتلك الأقمار الصاعدة من الأرض لا تملك إلا أن تدور مشدودة إليها بما للجاذبية من سلطان .

ليته لم يعتذر لها عندما تبين الخطأ .

ليته تركها واهمة تحسب الخطأ حقيقة صادقة .

لماذا لم يستقبلها بوجهه ساعة ضمتها الحجرة إليه ؟

لماذا بقى نافراً يوليها ظهره ؟

أجبن أن يواجهها خوفاً من أن يلين قلبه ويرق ؟

أعلى هذا النحو يختم حلمها القصير معه ؟

إنها لا تحتمل . . . أعصابها مرهقة إلى حد التخاذل والإعياء .

يا لها من غمائم قاتمة تلك التى تغشى سماءها الصافية !

ويخرج هو عن صمته ويقول راعش الصوت :

علينا أن ننفصل فى هدوء . . . ليكن فصالنا بمنأى عن زوابع النشيج والبكاء ، وشوائب التبكيت والعتاب . . . الحياة معك فقدت رونقها الجميل وطعمها الحلو . . . عليك بالرحيل . . . مبلغ من المال يعوضك ما لحق بك من ضرر . . . لم أعد أحبك . . . وإنى على يقين من فطنتك وذكائك . . . لا تجعلى المهمة عسيرة علىّ . . .

واهتزت الفتاة كأنها استهدفتها لكمة عنيفة ، وغلى الدم فى رأسها ، ثم ما لبثت أن انفجرت واقفة تصيح :

كفى . . . كفى . . . لقد جاوزت الحد . . . إنك جامد كالصخر ، متغير كالهواء ، متقلب كالبحر . . . إنك قاس وخشن لا تعيش إلا من نفسك ولنفسك . منذ الآن لن أقف فى

obeikandi.com

سبيلك . . . سأختفى من حياتك . . . سأكون خيالاً فى ضباب فنك ، وفكرة فى سماء إلهامك إن بقى لك إلهام وفن . . . الوداع . . . الوداع إلى الأبد . . . إنى أمقتك . . . أمقتك . . . أكرهك من أعماق قلبى .

وهرولت الفتاة خارجة يستبد بها نشيج ، وتخنقها عبرات ، وقد قذفت المكتب بالقلم ، ودفعت بالورق فتناثر على أديم الحجرة كأنه فتات قلبها الكسير .

واندفع هو يقول فى حماس :

رائع ذلك . . . موقف مثير . . . دونيه . . . لا تسقطى منه حرفاً . . . رائع . . . مرحى . . . مرحى . . . خاتمة فيها ولا ريب الروعة والسمو .

واستدار على عقبيه متهلل الأسارير ، فما كان أكبر دهشته عندما التقى بمقعدها خالياً بنفسه ، وقد انسدل عليه مطرفها ، وكأنه يحدجه فى أسف وذهول .

وران على « رب الحجرة » سهوم ، ثم اندفع نحو الباب ، وانطلق فى مختلف الأرجاء مردداً اسمها فى صوت جهورى ملهوف !

openkanda.com